قمم الشاعر وسفوحه
عبدالوهاب البياتي ... انموذجا

د. هشام فاضل محمود

Poems of the poet and his feet
Abdul Wahab Al Bayati… Model

Phd. Hisham Fadel Mahmoud

The research deals with the forms of poetry and the different levels and texts between the creativity and weakness of the poet to another has taken a model of poets is the poet Abdul Wahab Al-Bayati followed his poems and analysis and written about them.

L'originalité et le défaut du poète Abdul Wahab Al-Bayati ... un modèle

D. Hisham Fadel Mahmoud…

Cette recherche porte sur les formules de la poésie et ses niveaux de contraste, ses textes créatifs et faibles, d'un poète à l'autre, elle a pris un modèle le poète Abdul Wahab Al-Bayati, et ce qu'on a été écrit sur ses poems, dans une étude analytiques

بسم الله الرحمن الرحيم

لعل الشاعر عبد الوهاب البياتي من اكثر الشعراء الذين تباينت مستويات قصائدهم بشكل ملحوظ يثير التساؤل والاستغراب ويستدعي الوقوف على الاسباب التي تجبر شاعرا كبيرا الى ان لا يولي بعض قصائده العناية التي تستحقها في حين يحشد كل طاقته الابداعية للاهتمام بنصوص اخرى.

لاشك ان معظم الشعراء تتباين مستويات نصوصهم بين الابداع الفائق والضعف الملموس، ولا اظن ان ثمة شاعرا غزير النتاج تأتي كل قصائده على وتيرة واحدة هذا الامر مفروغ منه وليس بحاجة الى نقاش، اما ما نحن بصدده فهو البون الكبير بين نص واخر وبعبارة أدق وجود نصوص تلفت الانتباه الى ضعفها بطريقة غير مقنعة وغير مسوغة وكأنها لا تنتمي الى سجل ابداعه المعروف. سنحاول في هذا البحث تتبع ذلك في قصائد الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتي.

صدرت للشاعر عبدالوهاب البياتي (١٩٢٦ ــ ١٩٩٩) خلال مسيرته الابداعية الممتدة لقرابة نصف قرن (٢٧) مجموعة شعرية بدأها بـــ (ملائكة وشياطين) الصادرعام ١٩٥٠وانهاها بـــ (البحر بعيد اسمعه يتنهد) الصادرعام ١٩٩٩ فضلا عن كتابين وثق فيهما تجربته الابداعية الاول (تجربتي الشعرية) الصادر عام ١٩٦٨والثاني جاء تحت عنوان (ينابيع الشمس ــ السيرة الشعرية) وقد صدر عام ١٩٩٨. واذا كان ثمة شئ تؤكده هذه الكثرة الكاثرة من الدواوين فلا شك انها تشير الى غزارة نتاجه وديمومة عطائه دون توقف. حتى انه تمكن في بعض الاحيان من اصدار أكثر من ديوان في عام واحد، اذ صدر له (المجد للاطفال والزيتون) و(رسالة الى ناظم حكمت) في عام واحد هو ١٩٥٦. كما أصدرفي عام ١٩٦٨ديوانه (الموت في الحياة) وكتابه الذائع الصيت (تجربتي الشعرية) الذي وثق فيه مسيرته الشعريه ورؤاه بشان مهمة الشعر ووظيفته. وفي عام ١٩٦٩ صدرت له مجموعتان شعريتان هما (عيون الكلاب الميتة) و(بكائية الى شمس حزيران)، وكذلك الحال مع عام ١٩٧٠ اذ أصدر مجموعتين هما (الكتابة على الطين) و (يوميات سياسي محترف).

كما الفت عن شعره عشرات الكتب والدراسات والرسائل الجامعية بدءا بكتاب الناقد احسان عباس (عبدالوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث) الصادرفي عام ١٩٥٥ ومرورا بعشرات المؤلفات التي تناولت نتاجه الشعري والتي لا تزال تتواصل لتكشف عن هذه التجربة الابداعية الغنية.

لانبغي من خلال بحثنا هذا ونحن نتحدث عن قمم الشاعر وسفوحه ان نخرج على شروط الموضوعية ونواميسها او نبخس النصوص حقها أو ان نجنح الى الحماسة وحرارة العاطفة ونحن نمجد النص المعروض لادراكنا المسبق ان البياتي شاعر كبير وغزير النتاج وهو واحد من قمم الشعر العراقي خاض في شتى المضامين تنقل بين القصيدة الرومانسية والواقعية والسياسية والصوفية والايديولوجية والرمزية والاسطورية. وظل صوته جليا لما يقرب من نص قرن وهو الان ليس بحاجة الى تمجيد أو تزكية أو اشادة ولكن كل ما في الامر ان ثمة تباينا واضحا في مستوى نصوصه جلب انتباهنا ووجدنا من المناسب الحديث عنه.

لقد أدرك البياتي منذ وقت مبكر وظيفة الشعر ومهمته وتحول بشعره من الذاتي المنغلق الخاص الى الواقعي العام وجسد هموم الجماهير من خلال ايديولوجيا آمن بها واعتنقها وذاد عنها حتى كاد يخصص لها مجموعات شعرية كاملة، هذا في الشأن السياسي أو الفكري اما على صعيد القصيدة الصوفية فكانت رموزه وصوره ورؤاه ترتقي بالنص الصوفي وتخرجه من اطاره التقليدي الى مصاف هموم الانسان وبحثه الدائم عن الحقيقة وجوهر الاشياء. فضلا عن قصائد القناع المتنوعة والقصائد التي اتسمت بالنفس الحواري وشكلت ملمحا ميز البياتي عن سواه.

يفترض بنا في بحثنا هذا ان نحتكم الى قصائد البياتي فقط وننأى باحكامنا عن تأثيرات النقاد الذين أشادوا باسهاب بشعره او الذين مالوا الى غيرذلك وتقاطعوا في رؤيتهم مع الاخرين. وقبل ان نخوض في ذلك وجدنا من المناسب الوقوف على مكانة البياتي ودوره في رفد حركة الشعرالحديث.

منزلة البياتي

لا يختلف اثنان على ان الشاعر عبد الوهاب البياتي واحد من رموز الشعر العراقي الحديث فقد خاض في شتى الموضوعات وعمد بشكل مكثف الى استدعاء

رموز تاريخية واسطورية ميزته عن الشعراء الاخرين ومن رموزه الاثيرة التي اشتهر بها بين اقرانه من الشعراء : عمر الخيام والمعري وبلقيس وشهرياروالسندباد ولوركا وعشتار وتموز وبوذا وارفيوس والمسيح وادونيس وغيرهم وهذا دليل واضح على اتساع الفضاء المعرفي للبياتي واطلاعه الواسع على التاريخ القديم للامم والشعوب. كما تمتع بقدرة فائقة على توظيف هذه الرموز ووفق تماما في تعامله مع تقنية القناع وادرك القيمة الجمالية والدلالية لهذه الاقنعة التي توسل بها كثيرا للوصول بنصه الى اعلى مراتب التعبير وادهاش المتلقي، ولعل من أبرز اقنعته الحلاج وديك الجن وطرفة بن العبد وناظم حكمت وعائشة.

كما يعد البياتي واحدا من ابرز الشعراء الذين ادركوا بوعي متقدم وظيفة الشعر والمهمات الملقاة على النص في اختيار افضل السبل للوصول الى القارئ ومد جسور متينة بينه وبين المبدع، واستطاع البياتي ان يوظف المثل الدارج والحكمة الشعبية والقصص المأثورة ويصوغها صياغة شعرية اقتربت كثيرا من ادراك المتلقي العادي وأثرت فيه، واختار اسلوبا اخر شد انتباه القارئ اليه وهو صياغة القصيدة باسلوب سردي وحواري ترتفع فيه الدراما بشكل عفوي لافت.

واذا شئنا الركون الى اراء النقاد في شعره فلابد ان تكون البداية من الناقد احسان عباس الذي سبق الاخرين في كتابه الرائد عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث الصادر بوقت مبكر جدا عام ١٩٥٥ الذي يقول فيه (هو يرى اللفظة جامدة في اللغة العربية فيعمد الى ان يرد اليها حياتها ويجعلها ستارا تختفي وراء معان كامنة)[١].

ويقول الشاعر التركي ناظم حكمت في مقدمة ديوان البياتي (عشرون قصيدة من برلين) (اني لاحب في هذا الشاعر عفويته وبساطته وصراحته وقابليته المدهشة على تركيز المعاني وبلورتها في قصائده)[٢].

(١) عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث ــ احسان عباس ــ ص٣.

(٢) عشرون قصيدة من بيروت ــ عبد الوهاب البياتي ــ ص١٤.

ويقول الدكتور داود سلوم في كتابه (الادب المعاصر في العراق) (ان البياتي ذو قدرة هائلة على ابتكار المعاني)[١].

اما الروائي نهاد التكرلي الذي الف كتابا عن البياتي وعده فيه رائد الشعر الحديث فيقول (ان مهمة البياتي هي اعادة خلق الكلمات من جديد)[٢] .

وثمة شهادت اخرى جاءت على لسان عدد من المستشرقين سنكتفي بالاشارة الى بعضهم للتدليل فقط ولكي لا يخرج بحثنا هذا عن الحدود المرسومة له في بيان قمم البياتي وسفوحه وينشغل في الحديث عن اراء النقاد التي لا تحصى.

يقول المستشرق ز. دوليش في كتابه (الانسان المعاصر في شعر عبدالوهاب البياتي) (ان البياتي يقرب الشعر العربي من ذهنية ومدارك القارئ الاوربي)[٣].

اما المستشرق كارل بتراجك الذي تناول في كتابه مأساة الانسان المعاصر في شعر البياتي فيقول (ان الشعر الكلاسيكي القاسي في قافيته ووزنه يبدو لنا نحن الاوربيين على وتيرة واحدة وبعيدا عن التنوع ولذلك يعجبنا تجديد البياتي وشعره الحر، هذا الشعر الذي تتجلى قيمته الجمالية بشكل رئيس في وزنه وموسيقية لغته، كما ان الصور في شعر البياتي تحدثنا بلغة العصر فهي ليست مقيدة الا بحالات نادرة بالطريقة الخطابية الغالبة على الشعر الكلاسيكي)[٤].

المبالغة في تمجيده

من المؤكد ان ثمة العديد من الكتب التي تناولت تجربة البياتي وذهب بعضها الى الاشادة بهذه التجربة ومنجزها الابداعي الكبير، ولا غبار على ذلك ولا اعتراض عليه اذا ركن المؤلف الى الموضوعية واحتكم اليها بعيدا عن العواطف والتوتر والتعصب والمبالغة، ولكن دعونا نقرأ ماكتبه الناقد محمد مبارك في كتابه (الوعي الشعري ومسار حركة المجتمعات العربية المعاصرة) وكيف تعامل مع نص

(١) الادب المعاصر في العراق ــ داود سلوم ــ ص١٤٩.

(٢) عبد الوهاب البياتي رائد الشعر الحر ــ نهاد التكرلي ــ ص٦.

(٣) البياتي رائد الشعر العربي الحديث ــ ز. دوليش ــ ص٢٥٤.

(٤) ملامح وجودية في اثار البياتي الشعرية ــ كارل بتراجك ــ ص٥٠.

البياتي في مبحث له بعنوان (البياتي والبنية الشعرية الحديثة) (لعل البياتي هو الاسبق من بين كل رواد حركة الشعر الحرالحديث في العراق، بل من جميع شعراء جيله من العرب على امتداد ارض الوطن الممتد بين المحيط والمحيط الى احلال المتعة الذهنية محل المتعة الحسية بما تنوء به هذه الاخيرة من لعنة انانية الحواس ومحدودية رصدها واحاديته ولا بصيرة البدن وانغلاقه على خصوصية بنيته وادواته في تشكيل البنية الشعرية العتيدة للقصيدة العربية الحديثة واجتراح قيمتها الجمالية ــ الحسية وصياغة مفردات وعيها اللغوي المتعالي، فيرتفع بذلك بالشعر العربي مهمة وبنية ووظيفة ــ بعد خبو نار ابداعه المقدسة ــ اذا استثنينا الظاهرة الجواهرية الى صعيد الرؤيا التاريخية ذات الطبيعة الشمولية. ويقتنص عبر ما تقدم به من آثار شعرية ملامح حركة الواقع الموضوعي للانسان العربي في هذا العصر في مختلف اصعدة تخلق هذه الحركة امكانية جنينية وتحققها كينونة فعلية، وينتقل بالخيال والعقل العربيين من وهدة التخلف الروحي الذي صارت اليه الامة في عصور الانحطاط والتبعية عقب سقوط بغداد على يد هولاكو)[1] .

ولا غرو ان هذا التقويم النقدي فيه الكثير من التهويل الذي تجاوز شروط الموضوعية وخضع لمعاير العاطفة بشكل تعسفي، وكذلك الحال حين جعل البياتي هو من وضع تقنيات المنجز الشعري الحديث (وفق البياتي الى وضع تقنيات المنجز الجديد في البنية الشعرية الحديثة بما تمتاز به من مرونة معجبة وحيوية نادرة في الاداء اللغوي ــ العروضي ــ التشكيلي في خدمة مطالب العصر وقضاياه والتعبير عما تجيش به منطويات انسانه حتى ليكاد ان يتماهى بكل اولئك مع معطيات واقعه الموسوعي وما يضطرب فيه هذا الواقع من قوى وضرورات تاريخية ليكسب آثاره بذلك بعدا فلسفيا رؤيويا شموليا بالغ الثراء يسمي الاشياء باسمائها ويكشف المنطويات البعيدة ويصادر على المصائر غير المنظورة وينتقل بوجود هذه وتلك

(١) الوعي الشعري ومسار حركة المجتمعات العربية المعاصرة ــ محمد مبارك ــ ص١٦٩.

من دهاليز الكون بالقوة الى فضاء الوجود بالفعل وغنى تحققاته الانسانية الرائعة)[١].

ولا اود الخوض في مناقشة الناقد مبارك الذي بوأ البياتي هذه المنزلة ونسب له الفضل في تطور الشعروجعل نتاجه ذات ابعاد شمولية بالغة الثراء بما اتسم به من رؤى فلسفية صيرته متماهيا مع معطيات الواقع وما تعتمل فيه من مراكز قوى وضرورات تاريخية ملحة، وما حققه للنص على مستويات اللغة والعروض والتشكيل.

ولايبتعد كثيرا عما انتهجه حين يتحدث عن قصيدة البياتي عن وضاح اليمن وهي قصيدة لا شك في روعتها ولكن ماذا قال عنها الناقد محمد مبارك (اضافة الى انك من هذه القصيدة شأنك مع غيرها من قصائد الشاعر بازاء لغة غنية في الشعر... وطاقة كبيرة في التصوير تجمع بين ارفع ما انتهت اليه بلاغة القدماء في الاستعارة والكناية والتشبية وأخص ما صار اليه التعبير الحديث من شحن اللفظ بطاقات ايحائية وتعبيرية قادرة على خلق الرمز من طينة المفردة اليومية المتداولة وايجاد الصور الموحية باللغة اليومية وفي اللغة اليومية حتى انك من كل هذا تجد نفسك امام شاعر يريك بدائع من جمال الحس وروعة الشعر في العقل وروائع من جلال العقل ورصانة منطقه في الحس والشعر)[٢].

نقد شعره

وعلى الجهة الاخرى ثمة اراء مغايرة جهر بها اصحابها وصوبوا سهام نقدهم اللاذع وتحدثوا بقسوة شديدة عن شعر البياتي. وسنكتفي هنا بعرض نماذج على سبيل التدليل نبين من خلالها مقدار التباين والتقاطع في اراء النقاد في تعاملهم مع النتاج الشعري للبياتي. ولعل من ابرز هذه الاراء ما صرح به حسن توفيق في

(١) المصدر السابق ــ ص١٧١.

(٢) المصدر نفسه ــ ص٢٧٢.

كتابه عن شعر السياب الذي تطرق فيه الى شعر البياتي قائلا (ان اسلوب صياغته الشعرية اسلوب مهلهل بل ركيك)[١].

اما يوسف اليوسف فقد قال في ثنايا كتابه الموسوم (في الشعر العربي المعاصر) ما نصه (ان البياتي من جملة الشعراء الذين يفتقرون الى الحدس الصاعق والى التعالي اللغوي الى ماوراء اللفظ أو اللفظ ذي الماء والى القدرة على التعبير، فشعره يندر ان يكشف ويغلب ان يقرر وقلما تدخر القصيدة شيئا وراء ظاهرها وقلما تشير الى اكثر من مضمونها المعجمي، واللغة تبدو كما لو كانت ابدية الجاهزية ولا تخضع لاي جهد باطني يبذله الشاعر لكي يرغمها على الانصياع لتجربته الوجدانية)[٢].

وقال اكرم توفيق في بحث له نشر في مجلة الاداب البيروتية يقول فيه عن شعر البياتي (ان وفرة انتاج هذا الشاعر مع السرعة قد أفسدت علينا كثيرا مما كنا نأمل ونرجو)[٣].

وثمة آراء قيلت في عدد من دواوينه الشعرية واشارت الى ضعف نصوصها فقد قال الناقد عبد الجبار داود البصري في تقويمه لديوان (اباريق مهشمة) ما نصه (اقرأ اباريق مهشمة فاجد البياتي سياسيا يتتبع اخبار الصحف وريبورتاجاتها الخارجية ونشرات الاذاعة ثم يغمس هذه البضاعة في بوتقة قريحته فيضيف اليها شيئا ويحذف منها شيئا وينظمها ويؤطرها فتكون قصيدة)[٤].

اما داود سلوم الذي اشاد بشعر البياتي في اكثر من مناسبة فقد قال عن ديوانه (عشرون قصيدة من برلين) (ان قصائد ــ عشرون قصيدة من برلين ــ جمل قطّعت ورصف احداها فوق الاخرى)[٥].

الانا المتضخمة

(١) شعر بدر شاكر السياب دراسة فنية وفكرية ــ حسن توفيق ــ ص١٦٣.

(٢) في الشعر العربي المعاصر ــ يوسف اليوسف ــ ص٤٨.

(٣) اباريق مهشمة ايضا ــ اكرم توفيق ــ مجلة الاداب ــ ص٣٧.

(٤) مدارس في الشعر العراقي المعاصر ــ عبد الجبار البصري ــ مجلة الاداب ــ ص٥٩.

(٥) الادب المعاصر في العراق ــ داود سلوم ــ ص١٦٦.

لا شك ان البياتي من الشعراء الذين يتمتعون بنرجسية عالية دفعته للفخر بشعره في عدد من قصائده، وشن هجوم على النقاد ونعتهم باقبح النعوت، ولو تصفحنا عددا من دواوين الشاعرلتمكنا من الوقوف على الانا التي تضخمت لديه وعلى محاولاته المتكررة لاقصاء الاخرين وتهميشهم والنيل من النقاد والحط من شأنهم.

يقول البياتي عن شعره وشعر الاخرين:

شعري جواد جامح يعدو بفارسه الحزين
نحو الينابيع البعيدة
ماذا على الشعراء لو قطعوا يد المتطفلين
واشعلوا نار الحنين(١)

ويعمد في نص اخر الى الاشادة بكلماته (كلمات لا تموت) واصفا شعره بانه ميراث اجيال من الشعراء ستأتي من بعده لتتزود بكلماته وتصنع منها مدنا وحدائق ونجوما:

كلماتي
ازهار
لن تذبل
فلنرحل
فسيأتي شاعر
من بعدي
في باقتي ورد
في مشعل يقتحم الاسوارا
ويضيىء الانوارا
وسيصنع من كلماتي
من حبر دواتي
مدنا وحدائق

(١) ديوان البياتي ــ ص٥٠٤.

ونجوما ومطارق[١]

ويصف شعره بانه قادر على تجاوز الحدود وبمقدوره ان يحلق في الافاق ليس عبر الحبر المعتاد والاوراق المألوفة :

وغمست بالدم ريشتي
وعبرت في شعري التخوم
بلا بطاقة[٢]

ولا يتوانى عن صب جام غضبه على النقاد فالشعر أنبل من ان يخضع لاوامر النقاد:

سانفخ الرماد في عيونكم
وادلق الخمر على جباه
كباركم
ايها السادة
يا أشباه
الشعر لا تطاله اوامر النقاد
الشاعر في رؤياه
يقودكم سأمان من انوفكم
عبر التعاسات
فلتخفضوا ياسادتي الجباه[٣]

وعندما يتحدث عن زملائه الشعراء يقول :

سأدوس في قدمي
دعاة الفن والمتحذلقين
وعجائز الشعراء والمتسولين

---

(١) المصدر السابق ــ ص٤٣٤.
(٢) المصدر نفسه ــ ص٥٠٢.
(٣) المصدر نفسه ــ ١: ٤٦٧.

واحطم الاشعار فوق رؤوسهم[١]

وبلغة انفعالية وخطاب غريب مستعينا بمثل شعبي مستهلك يفتح نار كلماته على الشعراء الاخرين:

من قلة الخيول
شدوا على الكلاب سروجهم ونبحوا السحاب
أصبت بالقرف
منكم ومن اشعاركم يا ماسحي احذية الملوك
يا خنافس الخزف
في حرم الطغاة
يحبو الشعارير
وينموالقمل في اشعارهم[٢]

قمم البياتي

لا نستطيع في بحث كهذا الالمام بقمم شاعر كبير مثل البياتي، اصدر عشرات الدواوين التي ترجم بعضها الى اللغة الروسية والصينية، وواصل نتاجه الشعري على مدى نصف قرن، تنوعت مضامينه واساليبه الشعرية، واحتل موقعا اثيرا في خريطة الشعر العربي، غير اننا سنكتفي بايراد نماذج منتقاة ونحيل القارئ الى نماذج اخرى كلما دعت الضرورة الى ذلك.

فحين يصف حالة الضياع وتداعيات اللاجدوى ومرارة المنافي وقسوة الاغتراب يقول بصوت شعري حزين يلامس الشغاف:

أهكذا تمضي السنون
ويمزق القلب العذاب
ونحن من منفى ومن باب لباب
نذوي كما تذوي الزنابق في التراب

(١) المصدر نفسه ــ ص٥٠٥.

(٢) المصدر نفسه ــ ص١١٥.

فقراء ــ يا قمري ــ نموت
وقطارنا ابدا يفوت[١]

وفي قصيدته عن جلال الدين الرومي يتفوق البياتي في توظيف القناع ويأخذ القارئ الى تلك الاجواء الشعرية عبر لغة مكثفة موحية:

مولاي جلال الدين
جسدي في تبريز
وروحي هائمة في بحر الروم
شمسك اخفتها عني كتب اللاهوت
عشقي عدم ووجود
وغيابي ــ مولاي ــ حضور
الناي المسحور
يئن جريحا
وانا ارقص مذبوحا في الريح[٢]

وحين يتحدث عن مقتل وضاح اليمن تنساب القصيدة وياتي النص التالي على لسان وضاح وهو يروي قصة موته :

مت على سجادة العشق ولم امت بالسيف
مت بصندوق والقيت ببئر الليل
مختنق مات معي السر ومولاتي على سريرها
تداعب الهرة في براءة تطرز الاقمار
في بردة الظلام
تروي الى الخليفة
حكاية عن مدن السحر وعن كنوزها الدفينة
ويدرك الصباح دزدمونة[١]

---

(١) سفر الفقر والثورة ــ البياتي ــ ص٢٢.
(٢) بستان عائشة ــ البياتي ــ ص

وحتى النص المؤدلج الذي يلتمس له البعض العذر اذا ما ضعف أو اقترب كثيرا من الخطابية نراه في بعض نصوص البياتي جميلا ومنسابا على الرغم من ان معظم قصائد البياتي السياسية ضعيفة وسنشير الى عدد كبير منها عند حديثنا عن (السفوح) يقول البياتي متحدثا عن جبروت الحكام واستبدادهم:

اجيال وقوافل
امم وممالك
اهلكها الطوفان
واحدة بعد الاخرى
ترتفع الايدي في وجه الطغيان
لكن سيوف السلطان
تقطعها واحدة بعد الاخرى في كل مكان[٢]

والنص التالي ايضا ينم عن طاقة شعرية كبيرة في توظيف الرموز التراثية وتقديمها للمتلقي باسلوب شيق:

المهراجا قال لغالب
ماذا خبأت بهذا الخاتم
قطرة سم
ام تعويذة حب
ام جارية حسناء
فأجاب بحزن:
خبأت بهذا الخاتم شعري
وكنوز الفقراء[٣]

---

(١) الديوان ٢ : ٣٢٦.
(٢) قمر شيراز ــ البياتي ــ ص٢٧.
(٣) بستان عائشة ــ البياتي ــ ص

السفوح

لا اظن ان ثمة شاعرا تستقيم كل قصائدة على وتيرة واحدة من الجودة والاتقان فلا بد من تباين ملحوظ بين القصائد فقد ترتقى واحدة الى مصاف القمة وقد تضعف الاخرى وتهوي الى حيث التقريرية والنثر العادي وقد ينسحب هذا الحكم حتى على القصيدة الواحدة فقد تمتاز بـــ (حسن المطلع) و(براعة الاستهلال) و(حسن الخاتمة) وجودة الانتهاء ولكن قد نعثر على مناطق رخوة في متنها المتبقي. كما شاع في شعرنا ما أسموه بـــ(بيت القصيدة) و(الرقعة الارجوانية) وما (المختارات) ومثيلاتها الى شواهد على ما ذهبنا اليه.

ولعل هذا البون والتباين في النصوص مرتبط بامور عدة منها طبيعة الموضوع المتناول ونفسية الشاعر والاجواء المحيطة به وغيرها.

ويمكننا القول ان اكثر الشعراء الذين تجلت في نصوصهم القمم والسفوح بشكل لافت للنظر هو البياتي، واذا كان البعض يعزو ذلك الى طبيعة الموضوعات التي عالجها الشاعر في شعره وبالذات القصائد المؤدلجة التي اقتربت الفاظها من اللغة العامية ولامست لغة النثر ودنت من الخطابية والتقريرية فان ما ذهبوا اليه لا يقتصر على شعره الواقعي المؤدلج بل ينسحب على نصوص اخرى تباينت مضامينها، حتى لو افترضنا جدلا صواب من قال بان الكتابة للجماهير او ادلجة الشعر تبيح للشاعر التضحية بجمالية النص على حساب هدف اسمى واجل فمثل هذا الطرح يترك الباب مشرعا لهيمنة المضمون بشكل تعسفي على النص ويحيله الى ركام من الالفاظ الجاهزة التي تفتقر الى روح الشعر.

اننا هنا لانتحدث عن قصائد البياتي السياسية وانما عن عموم شعره وما لحقه من ضعف غير مقبول من شاعر بمكانة البياتي، من المؤكد ان الامر لا يقتصر على القصائد المؤدلجة ولعلنا وعلى تحفظ نلتمس العذر للشاعر فيها في بعض المواقف حين تقترب لغتها من لغة الجماهير وتحاول التعبير عن همومهم او تخضع لضوابط مهمتها الانسانية النبيلة وهدفها السامي في توظيف الفن ـــــ الشعر لخدمة الشعب.

ليس في نيتي ان أحصي كل النماذج التي اتى عليها الضعف غير اني ساشير الى بعضها للتدليل فحسب اذ ليس بالامكان ازاء شاعر كالبياتي غزير النتاج ان نقف على كل تلك النصوص التي غطت مساحة تجاوزت الاف الصفحات في مجموعاته الشعرية المختلفة.

لاشك ان للشعر لغته الخاصة ومفرداته الاثيرة التي يحاول الشاعر ان يلتقطها من بين الاف المفردات ويضعها في سياقها الملائم والتي ليس من بينها الفاظ مثل (خنافس) و(قمل) و(مزبلة) و(شعارير).

يقول البياتي :

في مقاهي الشرق
نصطاد الذباب
نرتدي اقنعة الاحياء
من مزبلة التاريخ
اشباه رجال
لم نعلق جرسا
في ذيل هر أو حمار[١]

ولعل هذا اخف وطأة من الفاظ اخرى وردت في نصوص البياتي منها (دود) و(جرذان) و(خصيان) و (لوطي) و(وجربان) و(حمير) و(قواد) و(اجرب) و(خرتيت) و(احذية) و (اعور) و(بعير) و(تيوس) و(عفن) و(نفايات) و(مخنثون) وهي مفردات مستهجنة لا مكان لها في عالم الشعر، قد يكون البياتي قد لجأ اليها للتدليل على شئ غير ان ذلك لا يعفيه ولا يسوغ له ايرادها في المتن الشعري الذي يفترض فيه ان يحلق في فضاءت السمو والسحر والجمال.

ولعل من ابرز النصوص التي اصابها الوهن هذه القصيدة :

لان عيوني جميلة
لانك احببتني في الطفولة

(١) الديوان ــ ٢ : ٢٨٤.

لان الليالي طويلة
لان العذاب
لان الكهولة
لانك واحة عمري الظليلة
لان دموعي قليلة
لانك يا فارسي
تدعي بالبطولة
لانك قد قبلتني في الخميلة
وعلمتني كل حيلة
لاني لم اكن ذات يوم بخيلة
لاني احبك
حب الذليلة
لان حياتي
بدونك يا فارسي
مستحيلة[١]

ولنا ان نقف على هذا النص الساذج وعلى القوافي الجاهزة التي تثير الضحك : جميلة ــ طويلة ــ قليلة ــ خميلة ــ بخيلة ــ حيلة ــ ذليلة وعلى هذه الجمل السطحية (دموعي قليلة) و(تدعي البطولة) و(حياتي مستحيلة) و(عيوني جميلة).

وسنواجه الشئ نفسه في النص التالي :

أحبها أحب عينيها
أحب شعرها المعطار
أحب وجهها الصغير كلما استدار
أحب صوتها الحزين الدافئ المنهار
يفتح في الظلمة شباكا

(١) المصدر السابق ــ ١: ٥٣٩.

ويهمي في الضحى امطار[١]

فالشعر نزولا عند رغبة القافية (معطار) و(الصوت) ليس رخيما او دافئا لكنه (منهار) ولوقت الضحى (امطار) ولو تركنا الحديث عن القوافي فالنص بجملته ضعيف ومتهافت.

وفي القصيدة التالية يكون العصفور (ازرق) لضرورات القافية والقفص ليس من خشب او حديد بل من (زئبق) اما القمر فانسجاما مع قافية الراء يكون (اخضر):

عصفور أزرق
في قفص من زئبق
غنى اغنية
غنى الحرية
يا حبي الاول
يا جدول
ينعش صحرائي
يا وطني النائي
يا قمري الاخضر
يا ولدي الصغير[٢]

ولعل أغرب ما في النص التالي هذه القوافي الساذجة والاسلوب الركيك والجمل الجاهزة التي لا طعم لها ولا رواء :

وجرحت احساسي
يا ايها المتحجر الناسي
بحديثك القاسي
عن عقدي الماسي

(١) خمسون قصيدة حب ــ البياتي ــ ص٣٨.
(٢) الديوان ــ ٦٥٤.

عقدي المزيف ايها القاسي
ونفذت كالفأر المريض الى
نفسي تعريها
كنسناس
لا شئ غير صبية فجعت
بك ياجبان
بعقدها الماسي
وحجبت عنك يا حلمي
عن اختي الصغرى
عن الناس
وكتمت انفاسي
خوفا من الجيران انفاسي[١]

ونقرأ في ديوانه الموسوم (سفر الفقر والثورة) هذا النص الذي يركن الى القوافي المتعسفة واللغة البسيطة :

ناديت بالبواخر المسافرة
بالبجعة المسافرة
بليلة رغم النجوم ماطرة
بورق الخريف بالعيون
بكل ما كان وما يكون
بالنار بالغصون
بالشارع المهجور
بقطرات الماء بالجسور[٢]

(١) المصدر السابق ــ ص١٢٥.
(٢) سفر الفقر والثورة ــ البياتي ــ ص١٨٦.

اما النصوص الخطابية فهي كثيرة جدا في دواوين الشاعروتأتي بصيغ نثرية جاهزة بعيدة تمام البعد عن روح الشعر وايحاءاته :

يا يسقط الاوغاد اعداء الحياة
السارقون ربيعنا يا يسقطون
صوب سلاحك نحوهم نحو اللصوص
انا رفاقك ايها الجندي الحزين(١)

أو قوله موردا الشعارات المألوفة المستهلكة في نص شعري ولك ان تتأمل مفردة (احباب)

المجد للشعراء والكتاب احباب الحياة
الخائضين اليوم معركة المصير(٢)

وقوله :

ستعيش في قلبي
وفي شعري الى ابد الاداهر(٣)

وكما حال النصوص الاخرى تأتي القوافي هذه المرة ايضا مقحمة تماما في القصيدة (نهار) (ازهار) (قيثار) :

سألعن النهار
ان لم اجد في ضوئه قيثار
ان لم أجد ازهار
ابارنا مسمومة
فاين يا حبيبتي الفرار
رفاقنا ماتوا
ولم يبق سوى الجدار(٤)

---

(١) اباريق مهشمة ــ البياتي ــ ص٩٥.
(٢) المجد للاطفال والزيتون ــ البياتي ــ ص٥.
(٣) الديوان ــ ١: ٥٠٨.
(٤) المصدر السابق ــ ص ٣٧٤.

وتطالعنا الجمل الجاهزة في النص التالي (قلق المصير) و(ليس للثورة من سبيل) و(ليس للعالم من بديل) :

ومن يفك الشاعر الاسير
من اسره من ظلمات عصرنا
من قلق المصير
الشعر كان قدري يا قاتلي الاجير
من يمسح التراب عن زجاج هذا الفندق الحقير
وقعت في الكمين
يايها الشاهد فاحلف لهم اليمين
ولتمسح النجوم بالمنديل
فليس للعالم من بديل
وليس للثورة من سبيل[١]

والنص التالي لا علاقة له بالشعر مجرد نثر ضعيف :

مابين استغلال الانسان
لاخيه الانسان
وحريق الكلمات
تولد من رحم الارض الثورات[٢]

ولا ريب ان النص الذاتي التالي ليس فيه من روح الرومانسية وحرارة الوجد اي شئ:

خطفت مني قلبي
سلبت مني نفسي
اخذت مني العالم

(١) المصدر نفسه ــ ٢: ٤٩.
(٢) المصدر نفسه ــ ٢: ٤٤.

فرت مني[١]

وكذلك الحال مع النص التالي :

رسالتي

كانت اليك

بسيطة مثلي

ومثل غناء عمال العراق

مثل العناق

اني مددت يدي

الى كل الرفاق[٢]

ولاشك ان عبارات مثل (تاريخ طويل) و(اقوى من الاوغاد) بعيدة عن الشعر:

للكادح العربي في عينيك

تاريخ طويل للنضال

اقوى من الاوغاد يا وطن الرجال[٣]

وتكون المفردات مما هو مألوف ومتعارف عليه في حياتنا اليومية ومما لا ترغب به القصيدة التي تعتز بلغتها الشعرية العالية :

اني لأومن في غد الانسان في نهر الحياة

فلسوف يكتسح التفاهات الصغيرة والسدود

ولسوف ينتصر الغداة

انسان عالمنا الجديد[٤]

وتحمل القافية النص عبءا اخر فوق ما موجود فيه :

من اجل عينيك الجميلتين

صليت مرتين

---

(١) المصدر نفسه ــ ٢: ٤٤٤.

(٢) خمسون قصيدة حب ــ البياتي ــ ص٣٧.

(٣) الديوان ــ ص٢٢٧.

(٤) الديوان ــ ص٢١٨.

اوقدت شمعتين
بكيت يا حبيبتي فالبين
يمد لي يدين [١]

واخيرا لم تكن القصائد التي استشهدنا بها تنتمي الى المراحل المبكرة من تجربة البياتي لكي نلتمس لها العذر كونها من نتاج البدايات التي قد يعتريها الضعف وينتابها الوهن الى ان يستقيم مسارها وتنضج، غير ان ما عرضناه غطى مراحل مختلفة من شعر البياتي وتم اختيارها من دواوين تباينت تواريخ صدورها.

كما اننا تعمدنا عرض نصوص تنوعت مضامينها وتوزعت بين الذاتي ذي الصبغة الرومانسية والواقعي ذي الاهداف الايديولوجية وغيرها من النصوص لكي نصل الى ماذهبنا اليه وحاولنا ترسيخه ، ولعل النصوص جاءت على وفق ما رأينا وارتأينا وتركناها في كثير من الاحيان تتحدث عن نفسها دون ان نثقل كاهلها بالنقد والتحليل والتعليل كما انها واضحة تماما ولا تحتمل التأويل.

(١) المصدر السابق ــ ص٤٠.

المصادر

- اباريق مهشمة ـــ عبد الوهاب البياتي ـــ بغداد ١٩٥٤.
- الادب المعاصر في العراق ــ داود سلوم ــ بغداد ١٩٦٢.
- بستان عائشة ــ عبد الوهاب البياتي ــ دار الكرمل ــ عمان ١٩٩١.
- البياتي رائد الشعر العربي الحديث ــ ز. دوليش ــ القاهرة ١٩٦٦.
- خمسون قصيدة حب ــ عبد الوهاب البياتي ــ دار سحر للنشر ــ ١٩٩٧.
- ديوان البياتي ــ دار العودة ــ بيروت ــ ١٩٧٢.
- سفر الفقراء والثورة ــ عبد الوهاب البياتي ــ دار الاداب ــ بيروت ١٩٦٩.
- شعر بدر شاكر السياب دراسة فنية وفكرية ــ حسن توفيق ــ بيروت ١٩٧٩.
- عبد الوهاب البياتي رائد الشعر الحر ــ نهاد التكرلي ــ دمشق ١٩٥٨.
- عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث ــ احسان عباس ــ بيروت ١٩٥٩.
- عشرون قصيدة من برلين ــ عبد الوهاب البياتي ــ بيروت ١٩٦١.
- في الشعر العربي المعاصر ــ يوسف اليوسف ــ دمشق ١٩٨١.
- قمر شيراز ــ عبد الوهاب البياتي ــ دار العودة ــ بيروت ١٩٩٠.
- المجد للاطفال والزيتون ــ عبد الوهاب البياتي
- مدارس في الشعر العراقي المعاصر ــ عبدالجبار البصري ــ مجلة الاداب ــ عدد ١١ ــ بيروت ١٩٥٧.
- ملامح وجودية في اثار البياتي الشعرية ــ كارل بتراجك ــ القاهرة ١٩٦٦.
- الوعي الشعري ومسار حركة المجتمعات العربية المعاصرة ـــ محمد مبارك ـــ دار الشؤون الثقافية العامة ـــ بغداد ط١ـــ ٢٠٠٤.